مراجعة نقديَّة لصورة الآخر في ثقافتنا

سالم المشهور

في مقاله «الآخر في الثقافة العربية الإسلامية»؛ تحدَّث شمس الدين كيلاني عن صُورة الآخر في الثقافة العربية الإسلامية، التي ارتبطتْ بطريقة حميمية بمرجعيتهم الثقافية: العربية الإسلامية، والتي حدَّدت لهم معاييرهم القيمية، يستندون إليها لإصدار أحكامهم على هذا الآخر. وتحدَّث أيضا عن كوننا أخضعنا ثقافة الغير لمقولتي التزيين والتقبيح، وأنَّ المفاضلة شكَّلت جزئية مهمة في تفكير كلٍّ من كَتَب عن الآخر، ثم أشار إلى خُطورة الصورة المتخيَّلة عن الآخر التي تملك في أحيان كثيرة القدرة على إحلال نفسها محل الواقع، وهذا في رأيي أخطر ما يمكن أن ينشأ عن الصورة المتخيَّلة التي نحملها عن الآخر.

وفي سياق حديثه عن دَوْر الإسلام في تغذية المخيلة العربية الإسلامية بصورة معيَّنة للآخر، يرى الكاتب أنَّ «القرآن كان بمثابة النصّ المفصلي الذي قامت عليه الجماعة الإسلامية، وتآلفت في كنفه، وحدَّد للمسلم مواقفه من الآخر». وهنا؛ لا بدَّ أنْ أسجِّل هذه الملاحظة، وهي أنَّ صُورة الآخر في القرآن الكريم خضعتْ لسياقات تاريخية وسياقات اجتماعية ولغوية وظروف السلم والحرب. وإغفالُ هذه السياقات يؤدِّي إلى إنتاج صورة مشوَّهة عن الآخر.

ثمَّ أشار إلى أنه «على الرغم من أنَّ الموقف الديني، قد لوَّن كلَّ جوانب الثقافة العربية الإسلامية، إلا أنَّنا لا نستطيع أن نُقصر الموقف من الآخر على العامل الديني وحده؛ فهناك جوانبَ لها تأثيرها أيضًا، اختزنتها الثقافة العربية والتي كانت حصيلة تراكم تاريخي طويل الأمد، ثم عزَّز الكاتب فكرته هذه بما قاله برودیل: «الإسلام هو قبل كل شيء وريثُ الشرق الأدنى بثقافته واقتصادياته وعلومه القديمة، وهذا يضيف إليه كمية هائلة من الموروث الحضاري؛ وبالتالي قرونا طويلة من التاريخ».

وهنا؛ لابدَّ من وقفة مع المصطلح؛ فمفهوم الإسلام عند برودیل يختلف كليًّا عن مفهومه عند الفقهاء؛ فإسلام الفقهاء مغلق، مكتمل البناء، وهم يستدلون على ذلك بقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»، وهناك مفهوم البدعة الذي أصبح سيفاً يرفع في وجه كلِّ جديد يُراد له أن يدخل إلى دائرة المقدس أو حتى إلى حيز العادات، وإنَّ تفاوت الفقهاء في مقدار حساسيتهم من الدخيل أو الجديد؛ لذلك أرى أنَّ مقولة «الإسلام وريث الشرق الأدنى بثقافاته» في نظري ليست دقيقة؛ لأنَّ الثقافات القديمة في الغالب لم يرحَّب بها، ولم تدخل إلى حياة المسلمين بترحيب وإجازة من الفقهاء! بل إنَّني أستطيع القول: إنَّ العقل الفقهي أمعن في بناء السدود التي تعيق، وتمنَّع دخول أي ثقافة أو عادة لم تكن عند سلف الأمة، واعتمدوا في ذلك على مجموعة من

النصوص الروائية؛ مثل: «من تشبه بقوم فهو منهم»؛ لذلك أرى استبدال الإسلام في مقولة برويل بالمسلمين، فتُصبح المقولة: المسلمون قبل كل شيء ورثوا الشرق الأدنى بثقافاته واقتصادياته وعلومه القديمة. ثم تحدَّث الكاتب عن المعايير التي حكمت من خلالها الثقافة العربية الإسلامية على ثقافة الآخر؛ فهناك:

١- المعيار الديني: الإيمان الإسلامي.

٢. المعيار الحضاري: وهو يقاس بمدى العمران عند الآخر.

٣. المعيار البيئي الجغرافي: وهو يتعلق بموقع هذه الحضارات في أقاليم الأرض.

كلُّ هذه العوامل مُجتمعة لوَّنت نظرة الثقافة العربية الإسلامية إلى الآخر، وإن كان بعض المفكرين ركَّزوا وضغطوا على أحد العوامل والمعايير أكثر من الأخرى، إلا أنَّهم في الأغلب أخذوا هذه العوامل مُجتمعة في أحكامهم.

المعيار الديني

حاول الكاتب انتقاءَ بعض الآيات، والتي تتضمَّن اعترافا بحق الآخر في امتلاك فكر مُخالف، والتي تقرر أنَّ الاختلاف سُنة كونية كقوله: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»، وقوله: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا»، وقوله: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»...وغيرها؛ ليشيد بدور المعيار الديني في احترام الآخر، ورسم صُورة طيبة عنه، وكأني به تغافل عن نصوص أخرى تؤسس لأقصى درجات احتقار الآخر، كالحديث المنسوب إلى النبي الكريم الذي جاء فيه: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه»، بل إنَّني وقفت على بحث في الإنترنت حول هل يُقاس على مضايقة الكافر في الطريق مضايقته في حال السير على الخط بالسيارة! وكأنني به أيضا تغافل عن إشكالية الناسخ والمنسوخ، والتي على أساسها ذهب بعض الفقهاء والمفسرين إلى كَوْن كل آية فيها تسامح مع الآخر هي منسوخة بعد نزول آية السيف! ومن يُلقي نظرة على كتب التفاسير وبعض الكتب الفقهية سيصدم من حجم فقه الكراهية الذي تأسس وفق هذه التفاصيل.

ومن ضِمْن الآيات التي استشهد بها الكاتب قولُه تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة: ٦٢).

وهذه الآية ومثيلتها في سورة المائدة، لم يأخذ بهما الفقهاء في تحديد معيار ديني يعلي من شأن الآخر إذا حاز هذه الصفات، بل إنَّهم أوَّلوا هذه الآيات بما يتوافق مع نظرتهم، التي تحتكر الجنة لهم فقط، ثم ساق الكاتب هذه الآية: «إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إنَّ الله على كل شي شهيد». وقال عقبها: فقد نوه القرآن هنا، إلى ستة فئات من أهل العقائد، أجاز اشتمالهم في الاجتماع الإسلامي، مع تفويض أمرهم إلى الله يوم القيامة؛ فكأن الاجتماع السياسي الإسلامي نوع من اجتماع حضاري». وهو كما قال، فالآية تؤسِّس لعلاقة راقية مع الآخر تقوم على إرجاء أمر الحكم على العباد إلى ربهم.

معيار الحضارة والعمران

لم يكن المعيار الديني هُو العامل الوحيد في حكم الثقافة العربية الإسلامية على الآخر؛ فهناك معيار الحضارة والعمران الذي هو معيار علماني بامتياز، يبعد الإنسان عن المعيار الديني القائم على العقيدة وأحكام الجنة والنار، وأستطيع القول بأن هذا المعيار وجد بكثرة عند كثير من الخلفاء والسلاطين والتجار الذين تواصلوا مع الآخر وانفتحوا على الآخر، وقيَّموا الآخر بما عنده من حضارة أو علم وتركوا الجدل العقائدي وانشغلوا بدنياهم.

... إنَّ الخضوع لصورة الآخر التي نرسمها بمعزل عن معرفة الآخر عن قرب، وعدم السعي لالتقاط صورة حديثة له يؤدي إلى كثير من التصورات الخاطئة عن الآخر، التي تعكر صفو العلاقة وتخلق أجواء من الكراهية بين الأطراف المختلفة. وللأسف، وقعنا جميعا في مثل هذا؛ فنحتاج أنْ نُراجع الصور التي نحملها عن الآخر؛ لكي نقترب من الحقيقة ولا نظلم الآخرين.

almashoor1000@gmail.com